تقديم

القارة الإفريقية التى نعتوها ظلماً بالسوداء والمظلمة ، قد أخذت تستفيق سريعاً من غفوتها ، وانطلق المارد الإفريقى وأصبح له شأن خطير فى السياسة العالمية ، وأثر محسوس فى الأدب والفنون بل فى الموسيقى .

ومصر دولة من الدول الكبرى فى إفريقيا ، وقد ارتبطت فى تاريخها الطويل ببعض شعوب هذه القارة ، حيناً بالسياسة ، وحيناً بالتجارة ، وحيناً بالنسب وأواصر القربى الوثيقة ، وحيناً بالاشتراك فى المصير ، وحيناً بوشائج العروبة التى لا تنفصم .

ولإفريقيا تاريخ عريق ضارب فى القدم ، وقد قامت فيها فى زمن الأزمان إمبراطوريات عظيمة ، وحضارات ناهضة ، كما أن لمصر سياسة إفريقية تحرص على مصالح هذه القارة .

وما أحوج القارئ العربى اليوم إلى طائفة صالحة من الكتب تعرف بهذه القارة التى تسابق الأحداث فيها الزمن ، وتلعب فيها السياسات العالمية أدواراً ينبغى لنا أن نعيها ونتابع نهضة القارة التى نجرى بأسرع ما نستطيع به أن نلاحقها .

وقد رأت دار المعارف أن تسد حاجة القارئ العربى هذه ، فتصدر سلسلة من الكتب تتناول قارة إفريقيا من جميع النواحى ، وهى تضع بين يديه الكتاب الأول من هذه السلسلة وهو « إفريقيا للإفريقيين » للكاتب الفرنسى كنود فوتييه وترجمة الأستاذ أحمد كمال يونس .

المستشار الثقافى

ابراهيم زكى خورشيد

مقدمة الكتاب

لقد ذكرنا فى هذا الكتاب أسماء حوالى مائة وخمسين مؤلفاً أفريقيًا من الجنس الأسود ، وكان أوائل هؤلاء الكتّاب من العبيد الذين ولدوا فى أفريقيا ومنحهم القدر امتيازا نادراً ، إذ أتاح لهم الدراسة فى أوروبا أو أمريكا . وأواخر هؤلاء المؤلفين هم ممثلو النخبة المثقفة التى أنشأها الاستعمار . وإذا كنا نتمنى ألا نكون قد نسينا ذكر أى كتاب ذى أهمية فإننا لم نحاول قط – وحتى بالنسبة لأفريقيا الناطقة باللغة الفرنسية – أن نكون ممن يكيلون المديح ، فإذا كنا قد حاولنا ذلك من جهة أخرى فإن ما بلغته الابحاث فى هذا الميدان لم يكن ليسمح لنا كثيرا بأن نبالغ فى هذا المديح ، وفى الواقع : أن الأدب الافريقى مهما كان « فتيًا » فإنه لا يزال بعد ميداناً لم يكشف حتى فى الفترة القريبة التى لفت فيها الكفاح من أجل تحرر شعوب أفريقيا المستعمرة النظر إلى ما يكتبه الأفريقيون .

والقيام بعمل جدول كامل بمؤلفات الأدب الأفريقى – بالمعنى العريض للكلمة – يحتوى على مؤلفات دارسى أصول السلالات البشرية ومميزاتها . وكتب المؤرخين وعلماء اللاهوت ورجال القانون والاقتصاد ، فإنه يجب القيام بعملية إحصاء منظمة تحتاج إلى مجموعة كبيرة من الباحثين ، كما أنه ليس من الواجب استقصاء ما تخفيه المكتبات الكبيرة فى العواصم الأوروبية المستعمرة السابقة فقط ، بل إنه من الواجب أيضاً القيام باستقصاء ما تخفيه مكتبات أفريقيا نفسها ، والتنقيب أيضاً فى دور النشر عن الكتب التى تحتجزها هذه الدور خصماً على حساب المؤلف ، إذ أنه كثيراً ما لجأ إليها مؤلفون أفريقيون غير مشهورين أو معروفين .

وبالنسبة لأفريقيا الناطقة باللغة الفرنسية ، فإن كتاب « أفريقيا الفرنسية » للمؤلف جوكلا (GUCLA) يشمل جدولا بالمؤلفات التى ظهرت ، وهو كتاب ضخم ، وبالرغم من أنه توقف عند عام ١٩٣٧ فإنه يمكن أن يتخذ أساساً لهذا البحث ، وإن كان الملاحظ أن بعض الأفريقيين قد بدأوا فعلا عملية استقصاء من هذا النوع ، وأن طالبين فى جامعة (Illinois الينوس) بالولايات المتحدة قد انتهيا من وضع جدول شامل عن جمهورية ليبريا .

وإذا كان عدد المؤلفين الأفريقيين قد ظل محدوداً إلى وقت قريب فى قارة كانت الأمية فيها هى

القاعدة السائدة ، حتى أننا كنا نجدهم قلة عند إحصائهم ، فإن الموقف الآن يتطور بسرعة كبيرة والإنتاج الأدبى الأفريقى قد تقدم بخطوات ثابتة عملاقة خلال السنوات الأخيرة بدافع من الكبرياء ، ومما لا شك فيه أننا سوف نرى بعد بضع عشرات من السنين قائمة كبيرة لعدد كبير من المؤلفين فى أفريقيا السوداء .

أما فيما يتعلق بنا فقد توقفنا عند صيف عام ١٩٦٣ غداة المؤتمر الذى عقدته الدول الأفريقية المستقلة الاثنتان والثلاثون ، فإن هذا المؤتمر يعتبر خلاصة ما وصلت إليه أفكار حكام الدول الجديدة بعد السنوات الأولى من ممارسة الاستقلال ، وقد يكون لهذا المؤتمر أهمية كبرى فى تاريخ أفريقيا ، فقد وجدنا موعداً صالحاً فيه وإيذاناً بإيضاح ما وصل إليه تاريخ الأدب الأفريقى من الزاوية السياسية .

ولقد أبعدنا عن دراستنا – إلا قليلا – الأدب الأفريقى الشفوى الناتج عن الفولكلور ، والذى ورد فى دراسة الكتب الأوروبية لدراسة أصول السلالات البشرية ومميزاتها مثل مؤلفات Frobenius أو Labounet ، وسبب هذا الاستبعاد هو تركيز اهتمامنا قبل كل شىء على التيار الحديث للأفكار الوطنية الذى عبر عنه المستعمر بلغته ، ولأسباب مماثلة أيضاً لم نتناول دراسة الكتاب السود الناطقين باللغة العربية ، لأن مؤلفاتهم تدور حول مفهوم بعيد جداً عن الميدان الذى يهمنا ، وبدون الرجوع إلى عهد جامعة تومبكتو التى هدفها حملة عسكرية مغربية فى نهاية القرن السادس عشر ولا الحديث عن الشريط (الجزء الصغير) الذى اصطبغ بالصبغة العربية بأفريقية الشرقية ، وقد يكون من الملائم أن نذكر أن الثقافة العربية قد أحرزت رواجاً فى غربى أفريقيا ، خاصة فى بداية القرن التاسع عشر فى إمارات (بول) Peul (اسم قبائل) فى شمال نيجيريا الحالية ، وترجع الوثائق التاريخية للغازى والمصلح الدينى عثمان دان فوديو وابنه بيللو سلطان سوكوتو إلى هذا العصر .

وهناك قصة تبين المستوى الثقافى الذى بلغه بلاط سوكوتو فى وضوح وجلاء ، فقد حدث أن طلب السلطان بيللو من الكاشف الإنجليزى كلابرتون أثناء زيارة الأخير لهذه البلاد لأول مرة عام ١٨٢٤ أن يمده بنسخة جديدة باللغة العربية لمؤلفات أوكليد Euclide لأن نسخته من هذه المؤلفات قد أتت عليها النار فى حريق شب فى العام السابق ، وقد حقق كلابرتون هذه الرغبة عام ١٨٢٦ .

ولكى نظل فى نطاق عهد الاستعمار أو ما بعده ، فإننا قد استبعدنا أدب ليبريا وأثيوبيا أخيراً من مجال أبحاثنا ، فهما الدولتان الأفريقيتان المستقلتان اللتان أفلتتا من السيطرة الأوروبية ، إذا إستثنينا

الفترة القصيرة التى احتل فيها موسوليني أثيوبيا ، ومع ذلك فإن أدب ليبريا به بعض الشبه بأدب المستعمرات الأفريقية السابقة ، ولو كان ذلك بسبب اضطرار مونروفيا إلى أن تكافح طويلا ضد أطماع الدول الكبرى (وهى بريطانيا وفرنسا) المسيطرة على البلاد المجاورة لها وذلك للمحافظة على كيانها ووجودها المهددين .

إن مؤلفات إ . د . بلايدن E. D. Blyden وهو أول كاتب كبير فى ليبريا – والتى سوف نتناولها ببعض الكلمات فقط – كانت دفاعاً فى سبيل رد الاعتبار للزنجى ، وكان لمؤلفاته تأثير فى الجيل الأول من المثقفين الأفريقيين الناطقين باللغة الإنجليزية فى خليج بيتان .

وقد استمر الأدب الليبيرى (ليبريا) بعد الكاتب «بلايدن» فى التقدم والنمو بواسطة مؤلفين عملوا على إذكاء الشعور الوطنى ، وتوجيه الجماهير إلى التعرف على حقيقة بلادهم ، أمثال أبايومى كارنجا مؤلف كتاب تاريخ ، وكتاب عن العادات الأفريقية فى ليبيريا ، وأرنست ج . ياسى ، ودويس نانكسى هنريز الذى خصص أحد مؤلفاته «لأبطال وبطلات ليبريا» وهؤلاء الأبطال والبطلات هم الرواد الأوائل الذين اصطدموا بعداء القبائل من سكان البلاد الأصليين .

ويهتم بعض المؤلفين المعاصرين بإذكاء الشعور الوطنى أمثال الصحفى هنرى ب كول مؤلف كتابى «لقاء الليبيريين» و«من هم الليبيريون» والمؤرخ أرنست إيستمان بكتابه التاريخى «تاريخ مقاطعة ميريلاند» ، كذلك قد نشر الكاتب ر يجيالد تاونسند كتاباً لخطب رئيس جمهورية ليبريا الحالى تحت عنوان «خطب الرئيس تو يمان» ولا يفوتنا أيضا ملاحظة أن المسئولين عن التعليم فى ليبريا يجتهدون أن يلقوا ويعلموا تلاميذ المدارس أدب بلادهم ، وقد نشر لهذا الغرض كتاب نصوص لمؤلفين ليبريين تضمن بعض أجزاء من مؤلفات الكاتب «بلايدن» إلى جانب قصص الفولكلور الأفريقى وأشعار للمؤلف هـ . كارى توماس .

وقد بلغ الأدب الأثيوبى ذروة مجده فى القرون الوسطى – ومؤلفاته الرئيسية مكتوبة بلغة «جيز» – ولو أن أكثره أدب مترجم كما بين ذلك «سير ا . ا والبس بودج» أمين الآثار المصرية والآشورية بالمتحف البريطانى الذى ندين له بترجمة الكثير من المخطوطات البالغة الأهمية التى أحضرتها إلى لندن حملة بريطانيا فى أثيوبيا فى نهاية القرن الماضى ، وكذلك فإن كتاب «كبرى ناجاست» المشهور الذى يقص تاريخ مينليك بن سليمان وملكة سبأ – وهو من نسب الأسرة المالكة الحالية نفسها إلى سلالته – يبدو أن قسيسا قبطيًّا قد جمعه وترجم من اللغة القبطية إلى اللغة العربية فى القرن الرابع عشر ، ثم ترجم مرة أخرى حينئذ إلى اللغة الأثيوبية .

وكتاب «تاريخ الإسكندر» أثيوبى وهو أقل بكثير من الكتاب السابق فهو مأخوذ من قصة إغريقية لكاتب ينتحل إسم Callisthène وتوجد منه روايات سورية وعربية وفارسية إلى جانب الرواية الأثيوبية ، والكتاب Callisthène الحقيقى كان من أحفاد أشقاء أرسطو ، وكان مؤرخاً عاش فى بلاط الإمبراطور المقدونى وكانت مؤلفاته – التى لم تصل إلينا – تشمل فيما شملت كتاباً عن حياة الإسكندر ، أما المؤلف الذى انتحل اسمه فقد أتى بعده بكثير وقد جعل ممن انتصر على دارا فى قصته بطلا مسيحيًّا ، وهو فى ذلك يرمى بوضوح إلى نشر تعاليم الإنجيل ، وقد لاقت رواجاً كبيراً فى رواياتها المختلفة فى ذلك العصر الذى تنازعت فيه شعوب كثيرة فى الشرقين الأوسط والأقصى نسبة الإسكندر إليها وجعله مواطناً من مواطنيها كما يبين ذلك لودج .

وكان الأمر كذلك بالنسبة إلى كتاب «برالام ويواصف» وهو قصة أسطورية هدفها أيضا نشر تعاليم الإنجيل ، ويوجد منها غير القصة الأصلية اليونانية التى نسبت إلى القديس يوحنا الدمشقى مدة طويلة حوالى ست روايات عربية ، وسورية ، وفارسية ، وأرمنية ، وجيولاجية وعبرية إلى جانب الرواية الأثيوبية وقصة ابن ملك هندى اعتنق المسيحية ، وتمتزج هذه القصة المليئة بالعبر بطريقة غريبة التقاليد البوذية وذكريات رحلة أسطورية خرافية للقديس توما فى الهند حيث اعتقد مستكشفو البرتغال الأول أنهم قد اكتشفوا مخلفاته لدى السطوريين وهم طائفة دينية كانت تعيش هناك عند وصول هؤلاء المستكشفين على ساحل كورومانديل .

وهناك وضع غريب لكتاب آخر من الأدب الأثيوبى يفوق فى غرابته وضع الكتاب السابق ، ذلك هو كتاب «معجزات السيدة مريم العذراء» وهو حسب رأى «جان دورس» قد كتب أصلا فى فرنسا باللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر إبان تفشى وباء التهاب النسيج الخلوى وإصابته بقروح وهو يقول فى ذلك «لقد انتقل هذا الكتاب إلى الشرق وترجم إلى اللغة العربية فى صدنايا فى سوريا ثم عبر الكتاب إلى مصر حيث زيدت عليه قصص محلية ، ثم وصل أخيراً إلى أثيوبيا حيث تم تكييفه بفن عجيب .

ولا داعى للقول بأن هذا الأدب الأثيوبى يظل ميداناً مخصصاً لبعض المتبحرين فى المعرفة فقط ، وفتحت أثيوبيا أبوابها فترة للتأثير الغربى وخاصة للبرتغاليين الذين كانوا يبحثون عن آثار ، ولكنها ما لبثت أن انطوت على نفسها بعد طرد الآباء اليسوعيين الذين أرادوا أن يعتنق الملوك الأثيوبيون المسيحية ، وفى القرن السابع عشر نجد العالم الألمانى «هيوب لودولف» وهو أكبر عالم

أوروبى فى الدراسات الأثيوبية لم يستطع مطلقاً الذهاب إلى أثيوبيا لمتابعة أبحاثه ، بل أنه تابعها فى Collegium الأثيوبية بالفاتيكان لدى رهبان أثيوبيين قد اعتنقوا المسيحية ورحلوا عن أثيوبيا مع آخر الآباء اليسوعيين .

وقد وصلت مخطوطات هامة إلى أوروبا فى نهاية القرن التاسع عشر وخاصة إلى لندن وباريس ، وكان الغزو الإيطالى قد سبّب نهضة فى الدراسات الأثيوبية ، وآخر كتاب من الكتب النادرة الشاملة التى نشرت عن الأدب الأثيوبى هو كتاب أتريكو Cerulli ومقال Jean Doresse يعتبر من الأبحاث الحديثة النادرة التى صدرت باللغة الفرنسية فى هذا الميدان ، وعنوانه هو « الأدب الأثيوبى والأدب الغربى فى القرون الوسطى » . وقد نشر هذا المقال بالقاهرة عام ١٩٦٢ فى مجلة جمعية الآثار القبطية ، كما نجد فى مقتطفات الأدب الأفريقى للكاتب « بيجى روثر فورد » بعنوان « الظلمة والنور » فقرات قصيرة جدًّا من كتاب « كبرى ناجاست » مأخوذة من ترجمة « سيرا . ا . واليس بودج » أما الأدب الأثيوبى المعاصر فإن دراسته لم تبدأ بعد .

والآن . نرى لزاماً علينا أن نتوجه بالشكر إلى جميع من تكرموا بمساعدتنا فى إخراج هذا الكتاب ، ونخص منهم السيد / روبير كورنفان الدكتور فى الآداب ومدير مركز الدراسات والمستندات الخاصة بأفريقيا (بدول ما وراء البحار) على ما حبانا من تشجيع قيّم بما قدّم إلينا من البيانات التى لولاها لكان بهذا الكتاب أوجه نقص كبيرة ، كما نشكر كذلك السيد / جان أوزفالد الذى قدم إلينا فى سماحة تجربته كناشر ، كما نتقدم بالشكر أيضا إلى السادة / موروميى وزير الدولة الآن فى كينيا ودافيد ويليامز رئيس تحرير جريدة « غرب أفريقيا » الذى فتح أمامنا فى لندن أبواب مكتباتهم الفنية بكرم نادر ، فالمكتبة الأولى عن غرب أفريقيا والثانية عن شرق أفريقيا الذى كان يقع فيما مضى تحت السيطرة البريطانية ، وكذلك السينمائى المدريدى (من مدريد) جوليان ماركوس الذى وضع فى كثير من الظرف تحت تصرفنا كل ما جمعه من معلومات خاصة بفيلم عن المشكلة الزنجية « مشكلة السود » والسيد / أليون ديوب مدير مجلة « الوجود الأفريقى » الذى قدم إلينا كثيراً من البيانات عن حياة مختلف المؤلفين الأفريقيين والسادة م . م .هامباتى با وبراسور من منظمة J. F. A. N. عن مذكراتهما الخاصة بمؤلفات إبراهيما مامادو أووان وبشأن إمبراطورية ماسينا ، وإلى السيد / رينيه بانود وبخصوص ذكريات قراءته عن الأدب الاستعمارى فى بداية هذا القرن ، وإلى السادة جان دوفرنيوه مدير مركز علم المجتمع بجامعة تونس ، والسيد / كلود تاردتز أخصائى أصول السلالات البشرية ومميزاتها والملحق للقيام بالأبحاث بالمركز القومى للبحث العلمى بفرنسا ،

والسيد / جيلبرت أسيان الخبير الاقتصادى لشئون أفريقيا لدى منظمة S. E. O. E. S وهؤلاء السادة الذين كانوا أول من قرأ مخطوط هذا الكتاب لما قدموا من نصائح مفيدة ، وإلى مدام (السيدة) كوازيل أمينة مكتبة الدراسات والمستندات الخاصة بأفريقيا « الأفريقية » التى جعلتنا جدارتها نربح وقتاً ثميناً .

تمهيد

إن المطالبة بالاستقلال قد سارت دائماً جنباً إلى جنب مع النهضة الثقافية عبر التاريخ ، ويمكننا أن نبرز فى ذلك مثلا واضحاً كل الوضوح : ذلك هو حركة القوميات التى نشأت فى شرق أوروبا فى القرن الماضى ، والتى شهدت رجال النحو والصرف والمؤرخين والشعراء يعملون جميعاً فى سبيل إحياء روح الشعب ، فنرى الطراز الأول منهم وهو يضع ويقدم اللغة الوطنية مبتدئاً باللهجة ، ثم نرى الطراز الثانى وقد أحل تاريخ الشعب محل تاريخ الأسر الحاكمة المتتالية ، أما الطراز الثالث من هؤلاء الرجال فكان ينفخ بأشعاره فى نار الثورة لإشعالها[1] .

ولم تفلت حركة تحرر المستعمرات الإفريقية السابقة من هذه القاعدة ، فقد كان الوصول فيها إلى الاستقلال مسبوقاً ومصحوباً أيضاً بحركة ثقافية تثير الدهشة ، خصوصا وأن الأمية كانت هى القاعدة فى القارة السوداء قبل الحرب العالمية الثانية ، فإذا نشر كتاب لكاتب إفريقى منذ عشرين عاماً اعتبر هذا حادثاً شاذًّا غريباً فى نوعه ، أما اليوم ، فقلما يمر شهر واحد دون أن تظهر رواية أو مقال خاص بعلم نشاط الشعوب ، أو كتاب هجاء سياسى ، أو دراسة فى الإقتصاد السياسى لمؤلف أفريقى ، فإلى جانب شاعر مثل ليوبولد سيدارسنجور ، وكتّاب روائيين مثل كامارالاى ، وفرديناند أورينو ، وموبجوبينى ، وأموس توتوولا أو بيترابراهامز ، وكتاب إقتصاديين مثل ماماريوديا رئيس الوزراء السنغالى السابق ، ورجال لاهوت مثل الأب الكسيس كاجام ، والأب فانسان مولاجو الحائزون على درجة الدكتوراه من الجامعات الكاثوليكية . ورجال القانون مثل

---

(١) فى كتاب «الحركة الفكرية الوطنية فى الأدب الزنجى الإفريقى» يقارن الكاتب الكاميرونى توماس ميلون نشأة الأدب الإفريقى بنشأة الأدب الألمانى ، فقد نشأ هذا الأدب الأخير – بحسب رأيه – نتيجة ردّ فعل ضد سيطرة الثقافة الفرنسية التى كانت تسود أوروبا خلال القرن السابع عشر والثامن عشر لدرجة أصبحت معها اللغة الفرنسية هى اللغة الاوروبية عند المثقفين ، كذلك فإن النهضة الإفريقية (الثقافية) بالرغم من تعبيرها عن نفسها باللغة الفرنسية ، فإنها نشأت – على حسب رأيه – نتيجة رفض الإفريقيين أن يمتصهم المستعمر ، ومطالبتهم بشخصية زنجية إفريقية مميزة عن شخصية المستعمر فى جميع الميادين .

ت . ا . إلياس الذى كلف عام ١٩٦٢ بالاشتراك فى لجنة إعداد دستور الكونغو الفدرالى (١) ، نجد مع هؤلاء أخصائيين فى علم أصول السلالات البشرية وميزاتها مثل كوفى بوزيا ، ج . ب . دانكا ، وقد فازوا جميعًا بأصوات مسموعة فى الأوساط المتخصصة فى ميادينهم .

وهناك دليلان يبرزان جيداً مدى النهضة الثقافية الأفريقية ، أولها انتظام نشر مجلات من صنف جيد لم يكن معروفاً حتى الآن ، والثانى عقد مؤتمرات يقاس ذووها بمدى اهتمام الصحافة والحكومات بها ، وأهم مجلة يصدرها المثقفون السود هى بغير شك مجلة « الوجود الأفريقى » التى أسسها السنغالى أليون ديوب عام ١٩٤٧ فى باريس ، وقد أصدرت هذه المجلة عام ١٩٦٣ عددها الثانى والسبعين وزاد الكثير من أعدادها الخاصة على ٤٠٠ صفحة ، كذلك مجلة « تام تام » التى يصدرها الطلبة الأفريقيون الكاثوليك والتى لها مقر فى باريس أيضاً وعمّرت عدة سنوات ، وفى مجلة « إله الموسيقى الأسود » (Black Orpheus) التى أسسها أوروبيان من دارسى الشئون الأفريقية هما أوللى باير وجانهاينز جاهن .

وتبرز أيضا أهمية مجلة « الوجود الأفريقى » فى كفاية الصحفيين الأوروبيين الذين اجتذبتهم إليها للتعاون معها بالاشتراك فى التحرير فيها ، وكذلك فى مشاهير القائمين بالدراسات الأفريقية أمثال مونور ، ريشارد مولارد ، بالانديه ، جريول وهرسكوفيتز ، كما أن هناك علاوة على هؤلاء أندريه جيد ، ايمانويل مونييه ، جان بول سارتر ، ميشيل ليبريس ، وألبير كامو الذين أشرفوا على تأسيس المجلة بحماس وقبلوا الاشتراك فى الجمعية التى ترعاها .

ولكى نقيس مدى الطريق الذى قطعته هذه النهضة ، يكفى أن نذكر العواصف التى أطاحت بمجلات السود المثقفين التى أسست فى باريس بين الحربين . فقد أنشأ مجلة « الدفاع المشروع » عام ١٩٣٢ ثلاثة من شباب الأنتيل هم جول مونروت ، اتيين ليرو ، ورينيه مينيل ، ولكنها لم تصدر غير عدد واحد ، كما أصدر سيزير وسنغور وداماس وآخرون عام ١٩٣٤ مجلة « الطالب الأسود » التى جمعت هيئة تحريرها لأول مرة الأفريقيين وشباب جزر « الأنتيل » ولكنها كذلك لم تعش زمناً طويلا ، كما قضى على مجلة « العالم الأسود » بعد ظهور ستة أعداد منها ، وكان يشترك فى تحريرها برايس مارس من هايتى والأمريكى كلود ماكى ورينيه ماران من جزر الأنتيل وآخرون . أما مجلة « صباح السود » وهى ذات اتجاه شيوعى فإنها قد منعت من الصدور ، وقد صدور العدد ٤٣ من

---

(١) T. O. Elias هو اليوم وزير فدرالى للعدل فى بلاده (نيجيريا) .

مجلة «الوجود الأفريقي» في أكتوبر عام ١٩٦٢ إذ رأت الحكومة الفرنسية أن المقالات التي نشرتها المجلة في ذلك الحين تعتبر تهديداً لأمن الدولة . وكانت هذه هي المرة الأولى التي تصادر فيها هذه المجلة .

وسرعان ما أصبحت مجلة «الوجود الأفريقي» داراً للنشر : بأن أصدرت أعداداً خاصة ، ثم اتخذت بعد ذلك شكلاً آخر هو إصدار مجموعات مختلفة من الكتب ، فنشر أليون ديوب وأصدقاؤه عدداً من الكتب المهمة للمؤلفين الأفريقيين (والأوروبيين أحياناً) ، وقد نجح في هذا المجال الثاني ، كما نجح المجال الأول ، لأن المثقفين الأفريقيين الذين كثيراً ما كانوا يضطرون فيما مضى إلى طبع مؤلفاتهم على نفقتهم قد وجدوا بذلك ناشراً كرّس جهوده لفتح أبواب الشهرة أمامهم .

أما المؤتمرات التي عقدها المثقفون الأفريقيون ، فقد عقد المؤتمر الأول منها عام ١٩٥٦ في السوربون بباريس تحت رعاية مجلة «الوجود الأفريقي» وكان خاصًّا بالكتّاب والفنانين السود ، ثم تبعه اجتماع شامل آخر في روما عام ١٩٥٩ ، كما اجتمع المؤلفون الأفروآسيويون من ناحيتهم عدة مرات ، وكان ذلك في نيودلهي عام ١٩٥٦ وفي طشقند عام ١٩٥٨ ثم في القاهرة عام ١٩٦٢ . وقد عقد منذ وقت قريب في كامبالا بأوغندا مؤتمر ضم الكتّاب الأفريقيين الناطقين باللغة الإنجليزية للمرة الأولى .

وهناك برهان آخر على اهتمام العالم بالنهضة الثقافية الأفريقية ، ذلك أننا نجد الآن بين جمعيات اليونسكو ذات الطابع الاستشاري الجمعية الأفريقية للثقافة والتي ينبثق محركوها من المشتركين في تحرير مجلة «الوجود الأفريقي» .

وإن مجلة أليون دوب شاركت مشاركة جادة في الصراع الثقافي والسياسي لتحرير أفريقيا شأنها في ذلك شأن سابقاتها من المجلات التي صدرت بين الحربين ، كما أن لهجة مؤتمري باريس وروما كانت معادية للاستعمار ، وقد أعلن عن مؤتمر باريس بواسطة إعلان رسمه الفنان بيكاسو ، فكان ذلك حدثاً هامًّا ، وقد كتبت مجلة الوجود الأفريقي في صفحتها الأولى وهي تقدم ملخصاً لما قام به المؤتمر فقالت «لقد استخلص المؤتمر ثلاث حقائق أساسية فحواها :

- ليس هناك شعب بدون ثقافة .
- ليس هناك ثقافة بدون أسلاف .
- ليس هناك تحرر ثقافي حقيقي لا يسبقه تحرر سياسي .

كما كان القرار العام الذي وافق عليه مؤتمر روما في نهاية انعقاده واضحاً أيضاً ، فقد سجّل فيما

سجّل « أن الاستقلال السياسى ، والتحرر الاقتصادى شرطان ضروريان للازدهار الثقافى فى البلاد النامية عامة وفى البلاد الأفريقية بوجه خاص » ، فضلا عن تلك الدلالة الواضحة التى تبرز الاتجاه فى هذا العصر : وهى أنه فى عام ١٩٥٦ قد استضافت جامعة فرنسا « باريس » المثقفين الأفريقيين ثم استضيفوا فى روما عام ١٩٥٩ على مستوى أعلى السلطات فى الدولة ، وأعلى المستويات الروحية ، فقد استقبل كل من رئيس الجمهورية الإيطالية والبابا يوحنا الثالث والعشرين قبل افتتاح المؤتمر الدكتور برايس مارس رئيس جمعية الثقافة الأفريقية وسفير هايتى فى باريس ، وكانت غانا وغينيا قد حصلت على استقلالها فى ذلك الوقت ، وقد كانت اجتماعات طشقند والقاهرة بلا شك أكثر عمقاً ، وأشد انطباعاً باهتمام المؤتمرين بالشئون السياسية أكثر مما حدث فى اجتماعات باريس وروما .

وعندما وصلت الوفود إلى روسيا حياهم السيد شرف رشيدوف رئيس السوفييت الأعلى بإقليم أوزبيكستان معلناً فى خطابه بمناسبة افتتاح المؤتمر « أن المؤتمر يستوحى مبادئه من مبادئ مؤتمر باندونج مباشرة » ، أما فى القاهرة فكان الموضوع العام فى المناقشات هو « دراسة وسائل تقوية الشخصية الأفروآسيوية ونهضة الثقافات القومية » كما صرح بذلك مندوب تونس السيد محمد فرالى . وقد احتلت المناقشات السياسية مكاناً هامًّا حتى لقد انسحب وفد أوغندا من المؤتمر احتجاجاً على رفض اللجنة الثالثة أن تذكر فى القرار الخاص بالأمبريالية الاستعمار الشيوعى الروسى ، الصينى ، كما ثار من ناحية أخرى جدل عاصف بين الوفدين الصينى والسوفيتى حول قرار عن نزع السلاح .

إن هذه البيانات المختصرة جدًّا عن مؤتمرات المثقفين الأفريقيين التى تكوّن ثلث العالم تكفى أن تبين مدى عمق النهضة الثقافية وجديتها بهذه البلاد فى معركة الكفاح السياسية ، وكيف أن السياسة كانت تتغلب أحياناً على الثقافة ، وإذا كانت أفريقيا السوداء لم تتخلف عن تلك الظاهرة الثابتة التى تجعل شعوبها الطموحة إلى الحرية تحاول الاحتفاظ لنفسها بطابع خاص فى ميدان الآداب والفنون ، فإننا نجد التجربة الأفريقية فى هذا الميدان ذات طابع خاص جدًّا ، فالنخبة المثقفة قليلة العدد ، وما زالت جمهرة السكان من الأميين ، فضلا عن أن النخبة المثقفة قد تثقف أفرادها جميعا بلغة المستعمر وأنهم يعبرون جميعا بهذه اللغة على وجه التقريب (وكانت لغات المستعمر هى الفرنسية - الإنجليزية - البرتغالية) ومن أجل ذلك كانت تلك النخبة المثقفة لا توجه كلامها إلا إلى الجمهور الذى يحيط أميته ، وهو محدود ضئيل العدد ولن تكون مجافين للحقيقة والواقع إذا قلنا إن

النخبة الأفريقية المثقفة كانت توجه كلامها إلى عاصمة المستعمر الأوروبى نفسه مخاطبة بذلك - كرأيها - ضمائر المتحررين فى هذه العاصمة أكثر من توجيهها كتاباتها وكلامها إلى مواطنيهم الأفريقيين .

لذلك فإننا نرى أن النهضة الثقافية لأفريقيا السوداء وقت الاستقلال ، نهضة فريدة فى نوعها ، إذ أنها تختلف كثيراً عن النهضة فى الأمم التى أرادت التخلص من نير إمبراطورية التمسا والمجر وعن تلك النهضات الثقافية فى الدول العربية والآسيوية التى أمكنها أن تستمد نهضاتها الثقافية من ماض طويل حافل بالحضارة .

ومن العجيب أنه بحسب معلوماتنا من أنه لا يوجد كتاب شامل عن هذه النهضة الثقافية الأفريقية التى كانت ظاهرة فريدة فى نوعها أكثر من ظاهرة تحرر القارة السوداء ، وإذا أمكننا أن نستخلص فكرة عن آراء المثقفين السود فى مختلف الميادين من قراءة أعمال المؤتمرات التى عقدها الفنانون والمؤلفون السود وخاصة أعمال المؤتمر الثانى الذى تناول بالتحليل فى دقة الدور الذى قام به كل من المورخ وأخصائى علم أصول السلالات البشرية ومميزاتها ورجل القانون واللاهوت وغيرهم من الأفريقيين ، إلا أن الأمر هنا يتعلق بتجميع الأفكار التى كتبت أقل مما يتعلق بسلسلة من البيانات التى قدمتها شخصيات مختلفة عن المشكلات التى تواجه النخبة الأفريقية فى مختلف الميادين .

ومع ذلك فإن أهمية مشكل « النهضة الثقافية الأفريقية » لم تغب عن المتخصصين فى السياسة أو فى الأدب الأفريقى ، فالفريق الأول يعتبر النهضة الثقافية الأفريقية مظهراً من مظاهر الثورة السياسية ، كما يرى الفريق الثانى أن المعنى السياسى للأدب يعتبر بحق من ملامحه الأساسية ، وإن أجمع الفريقان على أن دراسة هذه النهضة الثقافية تنحصر غالبا فى الجزء الأدبى منها ، ولا يعلقون على مؤلفات رجال القانون واللاهوت والاقتصاد وعلم السلالات البشرية من الأفريقيين .

أما أخصائيو السياسة الأفريقية فإن عدداً من مؤلفيهم لم يتوان عن إبراز دور المثقفين ومؤلفاتهم فى الثورة الأفريقية ، فقد خصص لهم توماس هودجكين عام ١٩٥٦ فصلا فى كتابه « القومية فى أفريقيا المستعمرة » ويخصص فيليب ديكراين فى كتابه « مذهب وحدة البلاد الأفريقية » عدة صفحات لمجلة « الوجود الأفريقى » وللحركة الوطنية الفكرية الزنجية وهى التعبير الأدبى لتأييد مذهب وحدة البلاد الأفريقية ، كما يبرز جان بول سارتر فى كتيبه « إله الموسيقى الأسود » الذى كتبه كمقدمة لمختارات الشعر الجديد الزنجى ، والملاجاسى لليوبولد سيدارسنغور اهتمام شعراء الحركة

الفكرية الزنجية بالسياسة فى وضوح تام ، وقد بين الشاعر الأسود ليون حـ . داماس من جيوان فى كتابه « شعراء ناطقون باللغة الفرنسية » المعنى السياسى للانفصال الذى حدث بين الشعراء السرياليين السود من الجيل الجديد وبين تقاليد شعراء البرناس من الجيل السابق .

وقد اكتفى الألمانى جان هاينز جاهن فى كتـــابه Mointvé بأن يبحث فى الأدب الأفريقى الحديث عن الدافع الزنجى الحقيقى الذى بعث وأعاد للظهور تلك المعتقدات الموروثة عن الأجداد وهى التى أراد أن يتخذ منها أساسا لأى بحث يتعلق بالزنوج وأحوالهم . ومع أن هذا الكاتب يتعمق فى ميدان الميتافيزيقا الأفريقية إلا أنه يشير عرضا هنا وهناك إلى المضمون السياسى للنهضة الأدبية الأفريقية . أما الكاتبة ليليان كستيلوت فقد فعلت عكس ما فعل « جاهن » لأنها قد أطالت فى الحديث عن الجانب السياسى لمؤلفات الكتّاب السود . وهى تبرز تأثير الشيوعية واجتذابها للمثقفين الزنوج بطريقة واضحة لا تقبل الجدل وخاصة لأعضاء لجان « الدفاع المشروع » ومحررى مجلة « العالم الأسود » .

وعند عرض ما كتب – سارتر وداماس وجاهن وكستلوت – نجد أنهم لم يطيلوا البحث حول إدخال الحركة الأدبية عن أحوال الزنوج فى المفهوم الواسع للنهضة الثقافية التى تشمل علم أصول السلالات البشرية ومميزاتها والقانون واللاهوت والتاريخ والفولكلور ، وليس معنى هذا أن هؤلاء الكتّاب يجهلون هذه الميادين ، بل هم يتعمدون أن يمسوها فى اختصار . وأن يحصروا دراساتهم فى ميدان الأدب الأفريقى ولا يتعدون ذلك إلى ميادين أوسع ، وهى المطالب الثقافية التى تشبّع بها الشعر والرواية والأبحاث الأفريقية فى مختلف العلوم الإنسانية . ولذلك نجد فى إيجاز جاهن وكستلوت ما يثير العجب فيما يتعلق بمؤلفات تكشف عن الفكر الأفريقى الحديث بوضوح مثل مؤلفات « جوموكينياتا » أخصائى علم أصول السلالات البشرية ومميزاتها أو المؤرخ شيخ . أنتا ديوب ، حتى لقد كان ذلك أيضا بالنسبة لكتب النقد الأدبى المحض .

ومع ذلك فإنه عند انعقاد أول مؤتمر للمؤلفين والفنانين السود ، قد دعى إلى ذلك هذا المؤتمر أخصائيو علم السلالات البشرية ومميزاتها والمؤرخون الأفريقيون ، ولما عقد المؤتمر الثانى كان المنظمون له يعتقدون تماما أن الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية ليست حركة أدبية فقط ، حتى لقد أفسحوا المجال لأنفسهم للتدخل والاشتراك مع الكتّاب ، وتعكس نصوص القرارات التى اتخذت وصدّق عليها الاهتمام بما يأتى :

فإلى جانب قرار عن الأدب وقرار آخر عن الفنون نجد سبع قرارات عن ميادين كثيرة مختلفة فى

العلوم الإنسانية وعلوم التربية الوطنية وعلوم اللغات والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع واللاهوت والفنون المختلفة والطب .

والكتاب الوحيد الذى يعتبر بحق بحثاً شاملا عن رد فعل المثقفين الأفريقيين تجاه الاستعمار هو كتاب بير سولزر بعنوان : (Schwarze Intelligeuz ففيه تحليل للمؤلفات الأدبية ومجموعة مقتطفات لبعض المؤلفين الأفريقيين خاصة تتعلق بالاقتصاد والسياسة والدين ، ويستكمل المؤلف هذه المقتطفات بأحاديث له مع بعض السود المتطورين فى نفس هذه المواضيع وإن ظل بحثه لسوء الحظ محدوداً محصورا فى اتحاد جنوب أفريقيا فقط .

أما عن كتب المقتطفات الأدبية – وهى كثيرة – فإننا نجد منها الآن حوالى ستة كتب عدا كتب داماس وسنغور ، وهى التى ظلت إلى وقت قريب تقتصر على الأدب المحض فقط [١] ، ومع ذلك نبتت فكرة الأسف على فصل الأدب عن الاقتصاد والسياسة ، وفرضت هذه الفكرة نفسها وإن كان ذلك فى حيطة وحذر كما يذكر فى هذا الصدد بعض أجزاء لنص خطاب ألقاه «قوامى نكروما» ونص آخر «لكنياتا» فى كتاب «الظلام والنور» للكاتب بيجى روثر فورد ، كما أورد الشاعر الأسود الأمريكى لانجستون هيوجس فى كتابه «الكنز الأفريقى» نصوصا لقوامى نكروما وتوم مبويا كما تضمنت النسخة الفرنسية لهذا الكتاب نصوصاً لسيكوتورى ومحادولايا وكنياتا[٢] .

كان هذا مفهوم كتاب «أدب الزنوج» الذى كتبه الأب جريجوار منذ مائة وخمسين عاما ، وكان يسرد فيه على سبيل الحصر «حياة ومؤلفات الزنوج الذين لمعوا فى العلوم والفنون والآداب» وإذا لم يكن من الضرورى فى هذا العصر أن يعمل مثل هذا الحصر الذى كان يقوم به الأب

---

(١) نذكر من بين كتب المقتطفات هذه كتاباً باللغة الإيطالية للكاتب ماريودى إيدراد والكاتب ليونارد سانفيل وكتاباً باللغة العبرية للكاتب شمس إبال ، ونذكر أيضاً أن أفريقيا كانت بغير شك من أوائل القارات التى تملك كتاب مقتطفات للنصوص الإذاعية بعنوان «أصوات غانا المساهمة الأدبية فى برامج الإذاعة الغانية» الذى نشر عام ١٩٥٨ ، ونأسف إذ أنه لم تظهر مؤلفات مماثلة فى عواصم أفريقية أخرى ، كذلك لم تنشر بعد المؤلفات المسرحية للسنغالى أبدو أناناكا .

(٢) نجد فى هذا الميدان الفكرى كتاب «دوسيه أفريقيا» الذى يعتبر مؤلَّفاً جامعياً للتعرف على القارة السوداء إذ أنه قد اشترك فى تأليفه مؤلفون أوربيون وأفريقيون وهو يشمل مقتطفات من مؤلفات قوامى نكروما وسيكوتورى وجوموكينياتا وبعض كتابات الكاتب الروائى بيتر إبراهامز «من جنوب أفريقيا» عن رئيس غانا وكينيا ، وهجوماً شديداً مؤثراً للكاتب فيليس تا نتالا على النتائج الاجتماعية للتفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا .

جريجوار ، فإنه من الأنفع لمن يريد الاستزادة من فهم حركة تحرر أفريقيا المستعمرة ألا تنعزل دراسة أدب القارة السوداء الفنى عن المفهوم الشامل وهو مفهوم النهضة الأفريقية كمجموعة . وهذا أمر ضرورى خاصة وأن هناك الكثير من الاهتمام بالملامح التى تربط بين الكتّاب والباحثين الأفريقيين .

والطابع الأول الذى يشترك فيه الجميع ويربطهم هو طابع التعصّب السياسى ، فنرى فى أفريقيا المعاصرة علم أصول السلالات البشرية وطبائعها وعلم اللاهوت إلى جوار الأدب وقد سادها جميعاً التعصّب ، ويقصد المؤرخ الأسود من هذا فضح الغزاة والمستعمرين ورد اعتبار الزعماء الأفريقيين الذين حاربوا وقاوموا الاستعمار ، فيريد أخصائى علم السلالات البشرية ومميزاتها أن يدحض الزعم القائل بأن الأفريقى إنسان بدائى وحشى . المشهورة عن عقلية البدائيين ذات الطابع المنطقى تلك النظرية التى يرفضها المثقفون الأفريقيون بشدة .

وكتب شيخ أنتا ديوب قائلا « لقد إفترض أن هذه الأداة تؤدى إلى طبقات ذات أسرار خفية من بينها هذه العقلية الأفريقية المنطقية التى يخرج منها المخلوقات والأشياء ، ولقد بذلوا جهداً فى التمييز بين طبقات الجماد والمخلوقات العاقلة ، والأناث وبين الطبقات المعنوية ... إلخ ، والقول بأن هذه الطبقات تنبثق من عقلية لا تفهمها الروح الغربية ، ليس سوى وسيلة لسد الطريق أمام الأبحاث بمصطلحات وصيغ يصعب أيضاً حلها بالنسبة للنفس البشرية .

حقًّا إن هذا الانحياز ليس فى اتجاه واحد فقط وهو مكافحة الإستعمار ورد اعتبار القيم الزنجية ، بل انه يوجد قصصيون أفريقيون ينطقون اللغة الفرنسية قد امتدحوا الاستعمار مثل الكاتب السنغالى باكارى ديالو الذى كانت قصته « القوة والطيبة » تمجيداً وإبرازاً لهذين المعنيين على أنهما فضيلتان أساسيتان فى فرنسا ، كما يوجد أيضا بعض الكتاب الروائيين وبعض أخصائى علم أصول الكائنات البشرية – وهم فى الغالب من المسيحيين – الذى حكموا حكماً قاسياً فيما كتبوا على بعض ممارسة المعتقدات فى الخرافات مثل دافيد أتانو وكونيوم أو آمون رابى كما ورد رأى فى بعض كتب التاريخ والجغرافيا عن داهومى (مثل كيت أكندل وراجيس) بعيد كل البعد عن موضوع الاستعمار ، فضلا عن أن هناك أدباً بأكمله صادراً باللغة الوطنية لجنوب أفريقيا قد أطلق عليه « جانهايتز جاهن » تسمية تعتبر سبًا وهى « أدب الموافقين » الذى يعكس آراء وتعاليم المبشرين والموظفين الاستعماريين ، ويوجد أخيراً بعض الشعراء الأفريقيين الذين لم تستهوهم المطالب السياسية مثل بيراجوديوب ، كما جعل المكافح السياسى الأفريقى القديم فى الدول الناطقة بالفرنسية من نفسه فى عصره المدافع العنيف عن : La Loi Cadre القانون الوضعى (المحلى) .

وباختصار فإنه يوجد فى أفريقيا إلى جانب الأدب المنحاز أدب «محمى» وأدب مقيد تابع من أتباع الكنيسة «الإنجليكانية» وأدب محايد ، على حين أن الكاتبين الزنجيين الإنجليزيين ماريودى أندارد وأجوستينو قد قاوما الحركة الوطنية[1] والتعصب عند السود ، كما أن هناك حقيقة ثانية تفرض نفسها وتؤكد أيضا أنه ليس من الطبيعى أن نفصل فى أمر يهمنا بين القصصيين والشعراء من ناحية وبين المتخصصين فى العلوم الإنسانية من ناحية أخرى ، وذلك لأنهم سواء أكانوا منحازين ، أوغير منحازين ، أو أنهم معتنقون المسيحية أو متشبعون بالماركسية ، فإن جميع المثقفين السود تقريباً لم يعالجوا إلا موضوعاً واحداً هو «أفريقيا» إذ أن الاهتمام بالوطن الأفريقى قد بلغ أقصى غايته حتى أنه - من الناحية العملية الواقعية — لم نجد كتابا أفريقيين قد عالجوا موضوعاً آخر غيره ، إذا استثنينا ذلك الكاتب التوجولى «ر . ا . ج أرماتو» الذى كتب نحو عشرين كتاباً باللغة الإنجليزية بعضها بعيد عن موضوع أفريقيا مثل «مساهمة سويسرا فى الحضارة الغربية» ولو أننا نستطيع القول أن أرماتو قد كتب فى أول الأمر كتاباً بعنوان (عمق عقلية الرجل الأسود) (Deep down the blackman's mind) والملاحظ دائما أن يكون بطل الرواية الإفريقية رجلا أسود ، فإذا صادف أن كان البطل من البيض كما حدث فى قصة (نظرة الملك) للكاتب «كارالاى» فإنه لم يغفل أن تكون أحداث القصة متصلة بأفريقيا والعقلية الأفريقية ، أما الشعراء فإنهم يتغنون بالمرأة السوداء وبأرض أفريقيا ، كما تنعكس مشاعرهم فى أشعارهم ضيقاً وألماً من الاستعمار ، ولم يهتم أحد من كتاب الاجتماع الأفريقيين بتحليل نظم المجتمع الأوروبى كما لم يدرس أحد من علماء السلالات والأجناس الأفريقيين القبائل البدائية بأمريكا الوسطى أوفى إستراليا ، وكذلك الحال بالنسبة لرجال القانون ، فقد تناول «لامين جوبى» القانون الملغى الذى يحكم معاصريه وكتب «مانتوس» عن حق التجنس بالجنسية الفرنسية ، كما كتب «دودويتام» عن هذا التجنس أيضاً فيما وراء البحار . وكتب «تكيلى أبيليسو» عن مشكلة الصداق فى الكامرون وكتب «ت . أ . الياس» و «ج . ب . دانكا» عن العرف ونظمه فى وطنه وكذلك الحال بالنسبة لرجال الاقتصاد واللاهوت والسياسة .

ويمكن أن نتساءل عن أسباب هذا التعصب ؟ فنجد أن سبب هذا التعصب هو الحاجة الملحة التى يحسها المثقفون الأفريقيون لكى يعالجوا مشاكل بلادهم . وليست مجرد الاهتمام بالتحدث عما

(١) نجد أن مواطنهم الشاعر أوسكار ريباس منح فى يناير سنة ١٩٦٣ وساما برتغالياً هو وسام ولى العهد دوم هنرى وقد منحه إياه وزير مستعمرات ما وراء البحار فى حكومة لشبونة .

يعرفه المرء جيدا من معلومات . ولا تظهر هذه الظاهرة عند (يوشكين) أو (ديماس) فإن قلة ما يجرى فى دمائهم من الدم الأفريقى جعلها لا يحفلان بذكر أصلها الأفريقى فى مؤلفاتهما .

ويمكن القول بأن التداخل من الأدب والعلوم الإنسانية يظهر ظهورا واضحا وطبيعيًا حين كتب الكاتب فى مختلف الميادين . فنجد مثلا عند أخصائى علم أصول السلالات البشرية وطبائعها مثل «آمون زافى» و«دانكا» فإنهما كتبا بعض المسرحيات كما كتب «كونيوم» القصص الشعبية (الفولكلور) و«هازوما» كتب قصة تاريخية كما كتب الشيخ «أنتا ديوب» فى التاريخ واللغة وكذا الشاعر «سنغور» الذى يجمع بين الشاعرية ونظرية الطريق الأفريقى نحو الاشتراكية .

وكان ينبغى ان نتوقع بلا شك فى قارة يمثل فيها المثقفون أقلية ضئيلة أن يكون الكتاب والباحثون من رجال السياسة . ولذا كان من بين أخصائيى علم أصول السلالات البشرية «جوكوبياتا» أول رئيس لحكومة كينيا وكذا «كوفى بيزيا» و«ح. ب. دنكا» زعيمى المعارضة فى غانا «و«كيوم» عضو الشيوخ السابق فى الاتحاد الفرنسى و«هازوما» المستشار السابق للاتحاد الفرنسى و«بوبوهاما» رئيس المجلس الوطنى فى النيجر و«مبوتولوجيك» الوزير السابق فى نيجيريا الشرقية وكذا «مايكا كالاندا» وزير خارجية الكنغو السابق (ليوبولدفيل) . ومن رجال الاقتصاد نجد أن «دامادوديا» رئيس مجلس الوزراء السابق فى السنغال و«أبدولاى لى» مؤسس حزب التجمع الأفريقى فى السنغال وكان وزيرا سابقا . ومن بين القصصيين والروائيين ورجال المسرح نجد «برنارد داديه» وزير الإعلام فى ساحل الذهب والشيخ «حميدوكان» وزير التخطيط والمعونة الفنية السابق فى السنغال وكذا «سيدو باديان كوياتا» وزير الاقتصاد والتخطيط فى مالى وكذا «نارى بوبى» من فولتا و«فيلى دابو سيسوكو» السودانى وهما نائبان فرنسيان فى المجلس النيابى وكذا جان مالونجا (الكنغو) عضو مجلس الشيوخ السابق عن الحزب الاشتراكى الفرنسى . ونجد من بين الشعراء «سنغور» رئيس جمهورية السنغال و«ماريودى أندراد» و«أجوستينو نيتو» مديران فى الحزب الأهلى فى أنجولا و«كيتا فودينا» وزير الداخلية فى غينيا و«أنطوان روجيه بولامبا» وزير الإعلام والسياحة فى الكنغو (ليوبولدفيل) .

وإذا كانت هذه الظاهرة ليست جديدة فإننا نذكر «لامارتين» و«دزرائيلى» وكذا «ماوتسى تونج» فهو أقرب مثل لعصرنا . قلما تصل هذه الظاهرة إلى هذا الشيوع والاتساع . وعلى هذا فإن هناك صلة وثيقة فى أفريقيا السوداء تربط بين الكتاب والباحثين والسياسيين . وإذن فهذه قصة المآل العجيب لهؤلاء المثقفين الذين نتصدى للحديث عنهم . ولب هذه المشكلة يكمن دون شك فى

كشف الأسباب التى جعلت من هذه النخبة من المثقفين والتى كانت هى الطبقة الأكثر قرباً من المستعمر فأصبحت بسبب ثقافتها ومستوى معيشتها على رأس الحركة التى تطالب بالاستقلال . ماعدا قلة منهم يعتقدون أن الأمل فى تحرير أفريقيا لايزال بعيداً .

كان تحرير المستعمرات القديمة يعتبر حدثاً بارزاً فى تاريخ القرن العشرين وكانت سرعة هذا التحرر تعتبر مثلاً من سرعة التاريخ الذى يبدو مفهومه يساير الحقائق الحالية .

إلى جانب هذا العنوان نرى بحثاً يفرض نفسه ويسير جنباً إلى جنب مع هذا التحرر . غير أنه يجب أن يظهر بوضوح ما سيكون عليه الغد من ردود فعل للجيل المقبل من المثقفين الأفريقيين والذين سيتزايد عددهم والذين سيولدون دون أن يتأثروا بالاستعمار ولكنهم لا محالة سيتهلون من أدب الجيل الذى سبقهم .

وقبل أن نتناول ذلك بالبحث يجب أن نقرر أن هذا الكتاب يجعل دراسة المثقفين فى المستعمرات الفرنسية السابقة فى المرتبة الأولى كما أنه يشير أيضاً إلى الفكر عند المثقفين الأفريقيين الناطقين باللغة الإنجليزية وكذا الناطقين باللغة البرتغالية مهما كانت مناعة وطول الحواجز الناجمة عن تقسيم أفريقيا وكتاب «جوموكينياتا» الذى ظهر لأول مرة فى سنة ١٩٣٨ لم يترجم إلى الفرنسية إلا فى عام ١٩٦٠ حيث يعتبره كل متخصص فى الشئون الأفريقية أكثر المؤلفات أهمية .

وإنه من الخطأ الفاحش أن نعزل تاريخ الأدب الأفريقى الحديث عن نظيره القوى وكذا الآراء الرئيسية التى قدمتها نخبة الملونين من سكان «الأنتيل» . فإن أحد مؤسسى الحركة الفكرية الوطنية الأفريقية «ايمى سيزار» قد ولد فى (المارينيك) كما أن «جورج بادمور» صاحب نظرية وحدة الدول الأفريقية قد ولد فى (ترينتية) .

كما كتبت الكاتبة «ليليان كمسلوب» أن الكتاب السود الأمريكيين الذين كانوا يقيمون فى باريس بين عامى ١٩٣٠ ، ١٩٤٠ مثل «كلود ماكاى» و «لانجستون هيجيز» وآخرين مثل «كونتى كيلن» كان لهم أثر عميق على الحركة الفكرية الوطنية الزنجية . ومن المؤكد أن نجد توافقاً فى الخواطر بين ما فى دواوين الشعر الزنجى فى أمريكا اللاتينية عند «أميليو بلاجاس» أو «إيلدوفونسو بريدا فالدس» أو فى دراسات «روجيه باستيد» عن البرازيليين السود نجدها نفس الموضوعات التى أوحت إلى كتاب أفريقيا . كما لعب المثقفون الأوروبيون دوراً لا يمكن إهماله فى نهضة أفريقيا ، ومن غير الإنصاف أن نتناسى دور هؤلاء الأوروبيين .

ولابد أن نضيف أن دراستنا هذه محدودة لأنها تنحصر فى فترة زمنية ما بين بداية الحرب العالمية

الثانية وحتى اليوم . ولكن هذا لا يتعارض بالطبع من تذكر من وقت لآخر كلمة عن مؤلفات رواد المثقفين الأفريقيين مثل «إيتايترسي سانشو» وهو عبد رباه دوق «مونتاجون» فى إنجلترا أو «إيلوراه اكمينو» الملقب «جوستافوس فاسا» الذى دافع أمام البرلمان الإنجليزى بوجوب إلغاء الرق . فهما من كتاب القرن السابع عشر . وقد ورد اسماهما فى المؤلف القيم الذى وضعه الأب «جريجوار» وهذا المؤلف يعتبر المصدر الذى استقى منه «ولسن أرمستيد» وهو من دعاة إلغاء الرق المتحمسين الذى ظهر بعد خمسين عاماً .

وإذا كان هذان الكتابان يتيحان لنا قراءة المثقفين الأفريقيين الأوائل والذين كتبوا باللغات الأوروبية (الحية والميتة) كمؤلفات «آمو» و«كايتين» باللغة اللاتينية : الأول من رجال القانون وقد تثقف فى ألمانيا . والثانى من رجال اللاهوت وقد تثقف فى هولندا . فإنه لا توجد حسب معلوماتنا أية مؤلفات فى اللاهوت مماثلة فى القرن التاسع عشر . ومع ذلك فتوجد بعض المكتشفات التى لم تتم بعد مثل «جيمس أفريكانوس ب . هورنون» وهو نطاسى (دكتور طب) من كلية الطب بأدنبره وعضو بالمعهد الأفريقى بباريس وقد عمل كطبيب بالجيش أثناء حملات الإنجليز الأولى على ساحل العاج أو «البوبولد بانيه» والذى كان يسبق اسمه دائماً بكلمة (المواطن السنغالى) حين يوقع التقرير السرى الذى قدمه عن مهمته فى الصحراء لحساب الحكومة الفرنسية عام ١٨٤٩ .

وقراءة هذه النصوص القديمة توضح - دون أن نحسب لذلك حساباً - المؤلفات والمخطوطات التى تتصل بجيلنا .